## - ١٩ -

# حجة الوداع

إن الوفود تأتى من كل مكان تبايع النبى ﷺ وتدخل فى دين الله.. وغشاوة الشرك قد انزاحت عن شبه الجزيرة.. وأصبح الآذان ينطلق من كل مكان معلنا بأن دين الله قد انتصر، وأن نبيه قد أدى الأمانة، فلم تعد هناك مواجهات جادة ضد أعداء الإسلام الذين تقلص ظلهم، ولم يعد أحد يمكنه أن يجهر بكلمة الشرك.. وعزم النبى على أداء الحج حتى يعرف الناس مناسك هذا الركن الخامس من أركان الإسلام فعندما جاء شهر ذى القعدة أمر النبى الناس للاستعداد لحج بيت الله الحرام..

ومعروف أن العرب كانت تحج بيت الله الحرام، منذ أن نادى خليل الرحمن إبراهيم بالحج، وكانت هناك أربعة أشهر حرم، حتى يأمن الناس الذاهبون إلى بيت الله الحرام هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم.. وهذه الأشهر أصبحت حرما حتى لا يخشى الحاج من بيت الله من أى شهر، كما كان شهر رجب من الأشهر الحرم، لإنه كان الشهر الذى يذهب فيه الناس لأداء العمرة، فلا قتال ولا سفك للدماء فى هذه الشهور.. ولكن بيت الله الحرام كانت قد دنسته هذه الأصنام التى وضعت حول الكعبة.. كما أن العرب ابتدعت عادات سخيفة فى الحج، فبعضهم يطوف بالبيت عرايا وبعضهم الآخر يطوف وهو يصفق ويملأ البيت بالصفير.. وكل هذا لا يتناسب مع جلال بيت الله ومهابته فى النفوس والقلوب..

ان النبى قرر أن يحج إلى بيت الله الحرام.. بعد أن تطهر من كل هذه الأوثان.. وحتى يوضح للمسلمين كيف يؤدون هذا الفرض.. ويعرفون المناسك من: الموقف، ورمى الجمار، وطواف بالبيت، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم..

وقد سميت هذه الحجة بحجة الوداع.. أو حجة البلاغ.. لأنها الحجة الوحيدة التى حجها النبى، كما انها الحجة الأخيرة له أيضا،..وفيها خطب خطبته الخالدة، التى أعلنت حقوق المسلمين، كأعظم ما تكون الحقوق.. فلم يعرف ميثاق دولى فى أى عصر من العصور، ما انطوت عليه هذه الوثيقة الرائعة التى رسم فيها النبى حقوق المسلم..

لقد تجهز المسلمون للحج.. وكلهم أمل أن يسيروا فى موكب الرسول الكريم ويؤدوا مع النبى الحج، ولم يسارعوا إلى أداء هذا الفرض وقد سمعوا نبيهم الكريم يقول:

- من حج لله لم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه.

وإذا كانت قلوب الرجال قد هفت لأداء هذه الفريضة، فإن النساء كن يتطلعن هن الأخريات لأداء هذه الفريضة، بعد أن سمعن إجابة النبى على سؤال لأم المؤمنين عائشة:

قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل الأعمال، أفلا نجاهد معكم ؟

فرد عليها النبى ﷺ: لا.. لكن أفضل الجهاد حج مبرور..

لقد خرج النبى حاجا لأول مرة، فمعروف أن النبى اعتمر مرتين من قبل هذه الحجة، وأما هذه المرة فقد قرن العمرة بالحج..

وانطلق ركب المسلمين فى خمسة بقين من ذى القعدة، وكانت السنة هى السنة العاشرة للهجرة.. وسار الموكب العظيم.. وعند (سرف) أمر الناس أن يحلوا بعمرة إلا من ساق الهدى..

وكان مع النبى من نسائه عائشة، وحفصة، وسودة، وصفية.. وقد أحرم النبى من عند مكان اسمه (ذى الحليفة).. فلبس ملابس الإحرام، ثم أخذ يكبر ويهلل..

- «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.»..

ونوى الحج والعمرة معا.

وكم كان المشهد رائعا، وعظيما وآلاف من المسلمين يربون عن المائة ألف يتجهون إلى بيت الله الحرام.. إنهم يسيرون وسط الصحراء فى طريقهم إلى البيت العتيق.. وأصواتهم الخاشعة تتصاعد إلى السماء، حتى إذا ما ظهر بيت الله الحرام على مرمى البصر قال النبى الكريم:

« اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما ومهابة ونورا، وزد من عظمه ممن حجة واعتمره تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة ونورا »..

وضربت خيام المسلمين حول الكعبة.

وطاف النبى فوق راحلته بالكعبة سبعاً، ثم صلى ركعتين خلف مقام إبراهيم ثم امتطى ناقته وسعى بين الصفا والمروة سبعا.

وأخذ النبى يؤدى مناسك الحج، وعرف المسلمون كيف يؤدون هذه الفريضة كما أداها النبى الكريم.

وعلى عرفات خطب الرسول الكريم خطبة الوداع.. الذى وضح فيها حقوق الإنسان، وبيّن حقوق المرأة، وحرم الربا، وأن الناس جميعا متساوون فى الحقوق والواجبات.. فلا يفضل إنسان على آخر إلا بالتقوى..

لقد وقف النبى، ومائة ألف من المسلمين يستمعون إلى خطبته العظيمة.. التى كان فيها يودع المسلمين.. فلم يقف النبى بعد هذا فى هذا المكان.. وكان قد اقترب رحيله إلى الرفيق الأعلى.. فقد أدى الأمانة على أكمل وجه، وما دامت الرسالة قد اكتملت، فهذا يعنى أن النبى قد أدى واجبه، وحان له أن يرحل إلى الرفيق الأعلى.

إن الرسول الكريم يقول فى هذه الخطبة الجامعة:

- الحمد لله، نحمده ونستعينه.. ونستغفره ونتوب إليه.. ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له.. ومن يضلل فلا هادى له.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا رسول الله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، واستفتح بالذى هو خير.. أما بعد أيها الناس:

فاسمعوا أبين لكم، فأنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا.. أيها الناس: أتدرون أى يوم هذا ؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال عليه الصلاة والسلام: أليس يوم الحج الأكبر؟

قالوا: بلى..

فقال: أى شهر هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: أليس ذا الحجة؟

قالوا: بلى.

قال: أى بلد هذا؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: أليست البلد الحرام ؟

قالوا: بلى.

قال: فإن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا.. ألا هل قد بلغت.. اللهم فاشهد.. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وأن ربا الجاهلية موضوع، وأن أول ربا أبدأ به هو ربا عمى العباس ابن عبد المطلب.

إن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث.

وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية.

والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك فيما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن النسئ زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما.. ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله. إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم.. ثلاث متواليات وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان.. ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد..

أيها الناس: إن لنسائكم حقا عليكم.. ولكم عليهن حق إلا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهون بيوتكم إلا بأذنكم. ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعظوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح.. فإن انتهين وأطعنكم، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وإن النساء عندكم عوان فى أيديكم، ولا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله.. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا.. ألا هل بلغت.. اللهم فاشهد.

أيها الناس: ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه..

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد..

فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فأنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله وسنة نبيه.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد. فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فرب مبلغ أوعى من شاهد...

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث. ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر.

من أدعى إلى غير أبيه. أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل منه صرف ولا عدل.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ثم نزل قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقد كانت الخطبة فى يوم الجمعة..

* * *